أسلوب الحكيم
قراءة في المصطلح والمعنى

الباحث/ حسين خلوفة محمد المرحبي
المملكة العربية السعودية

الملخص

تروم هذه الدراسة إلى محاولة دراسة أسلوب من الأساليب البلاغية المعروفة، وهو: "أسلوب الحكيم"، وذلك عبر الكشف عن تعريف هذا المسمى، ومدى ملاءمة هذا المصطلح (اللغوي) مع بعض الشواهد المختارة الموجودة في كتب البلاغة.

وقد جاءت عبر مقدمة، ثم تعريفه اللغوي، والبلاغي، ثم عرضت بعد ذلك إلى دراسة بعض النماذج من الآيات القرآنية، والشواهد الشعرية، والنثرية، وذلك لغرض تتبع المسمى الفعلي لهذا المصطلح، ومدى مطابقته لطبيعة المعنى الموجود في تلك الشواهد، ثم خلصت أخيرا إلى النتائج التي تضمنتها هذه الدراسة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

فلقد منح الله سبحانه وتعالى هذه اللغة الشريفة منزلة رفيعة، وخصائص منفردة، فتعاقب عليها الشرح والتحليل، والاستنباط والتعليل، فسخرت الدراسات النحوية والصرفية جهودها في التركيب والبنية، واستخرجت البلاغة – بعلومها الثلاثة: البيان، والمعاني، والبديع– الفنون المختبئة في ثنايا النصوص، والأسرار الكامنة في عمق الألفاظ.

تعريفه في اللغة:

الأسلوب في اللغة: الطريق، جاء في لسان العرب: " والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب."(١)، ويعرفه عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١) بأنه " الضرب من النظم والطريقة فيه (٢)

والحكيم تعني العدل والمُتقن: "وأحكم الأمر: أتقنه، وأحكمته التجارب على المثل وهو من ذلك. وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها فهو فعيل بمعنى مُفعِل، وقيل: الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم."(٣)

ويتضح من خلال هذه التعريفات أن الحكيم هو الموصوف بالروية والقول السديد في القول والفعل، فلا يقول ولا يفعل إلا صوابا.

تعريفه البلاغي:

يعرفه أهل البلاغة بأنه: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيها على أنه الأولى بحاله، أو المهم له (٤).

والمتأمل في هذا التعريف يجده تعريفا مكون من سماع وإجابة، فتلقي المخاطب يعني استماعه، والسماع يكون لطرف آخر متحدث، وما يعنينا بصورة أدق هو المجيب؛ لكون إجابته هي مقصد هذا البحث، فحمل الكلام على خلاف المراد، دلالة على عدم الإجابة الصريحة التي أرادها المُخاطَب أو السائِل.

وهذا التعريف يكاد يكون متفقا عليه إذا ما نظرنا في التعريفات الموجودة في كتب البلاغة، غير تعريف مختصر سبق به الجاحظ (المتوفى ٢٥٥هـ) يسميه (اللغز في الجواب)، وهو وإن اختلف في لفظه، لكنه يحمل نفس المعنى المراد: " ...ولعل الجاحظ أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي ، فقد عقد له بابا خاصا في كتابه البيان والتبيين، وأطلق عليه اسم «اللغز في الجواب» وأورد له أمثلة شتى منها : سأل رجل بلالا مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة : من سبق؟ قال :

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة :(سلب)

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ، ص ٤٦٩

(٣) لسان العرب، مادة: (حكم)

(٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١، ١٤٣٠، ص ١٤٥

سبق المقربون. قال : إنما أسألك عن الخيل. قال : وأنا أجيبك عن الخير. فترك بلال جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له"[١].

ومن اللافت للنظر أن عبد القاهر الجرجاني لم يخص هذا الأسلوب بوافر من الكلام غير إشارة لطيفة منه؛ فقد أطلق عليه اسم: (المغالطة) في قوله: " ... وكقول الذي قال للحجاج: ((لأحملنك على الأدهم))، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة: ((ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب)) [٢].

ولعل أول من خص الأسلوب الحكيم بهذا الاسم هو أبو يعقوب السكاكي (المتوفى سنة ٦٢٦هـ)؛ حيث يعرفه قائلا: " ولهذا النوع ، أعني اخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر ، أساليب متفننة ، إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة ، على ما تنبه على ذلك منذ اعتنينا بشأن هذه الصناعة ، وترشد إليه تارة بالتصريح، وتارات بالفحوى ، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتسرب من أفانين سحرها ، ولا كالأسلوب الحكيم فيها ، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب..."[٣].

وقد ذكر الخطيب القزويني (المتوفى ٧٣٩ هـ) في الإيضاح نسبة هذا الاسم للسكاكي "ومن خلاف المقتضى ما سماه السكاكي الأسلوب الحكيم..."[٤]، غير أننا لم نعثر على نسبة هذا الاسم للسكاكي في كتابه السابق تلخيص المفتاح، وما وجدنا غير تعريف فقط دون نسبة؛ حيث يقول " ومن خلاف المقتضى تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على [انه][٥] هو الأولى بالقصد"[٦]، وهو كتاب مختصر جدا، ولعل اختصاره سبب ذلك، والله أعلم.

ومهما يكن فإننا نرى موافقة القزويني لهذا المصطلح، وعدم معارضته للسكاكي، رغم اختلافه معه في كثير من الآراء التي ذكرها في التلخيص.

---

(٢) في البلاغة العربية علم المعاني–البيان– البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٨٣

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٣٨

(٣) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ص ٣٢٧

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق وتعليق وفهرسة: غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، ٢٠١٧م، ص ٦٠

(٥) هكذا وردت

(٦) تلخيص المفتاح، الخطيب القزويني، وقف على طبعه: سليم نصر الله داعر، طبع في بيروت سنة ١٢٠٢هـ ص ٢٠

ثم يأتي ذات التعريف بعد ذلك عند سعد الدين التفتازاني (المتوفى ٧٩٢ هـ) في كتابه (المطول)، وهو يشرح تلخيص الخطيب، ويفسره بنفس المعنى المذكور دون تغيير، فنراه شارحا لكلام الخطيب حول التعريف قائلا: "والمعنى ومن خلاف مقتضى الظاهر أن يتلقى المتكلم المخاطب الذي صدر منه كلام بغير ما يترقبه هو بسبب حمل كلام المخاطب على خلاف ما أراده [تنبيها له على أنه] أي: ذلك الغير[هو الأولى بالقصد] والإرادة..." (١) .

ويسميه ابن الحموي (المتوفى٨٣٧ هـ)بالقول بالموجب؛إذ يقول: "والقول بالموجب، ويقال له أسلوب الحكيم"(٢).

ومن هذا يتضح توافق البلاغيين في تعريف هذا الأسلوب، ولم نلحظ إلا اختلافا في صيغة المسمى فقط، فبعضهم يسميه: (الأسلوب الحكيم) وذلك بجعل الحكيم صفة للأسلوب؛ أي أنه أسلوبٌ صفته الحكمة، وبعضهم يجعل الأسلوب مضافا إلى الحكيم؛ فيكون (أسلوب الحكيم). وإن كان الأول أنسب معنى؛ لأن الحكمة قد لا تجدها عند كل شخص، لكن قد يصدر منه هذا الأسلوب في حدث معين، ولو جاء مضافا لأوهمنا أن الحكمة ملازمة له على الدوام.

إذن هو تلقي المخاطب أو السائل بغير ما يترقب، والترقب هنا يعني الإجابة التي يريدها المخاطب، أو السائل. ولما كان الترقب غير الذي يريده فلذلك أسباب يقصدها المجيب في نفسه حمَلَتْه على قولٍ غير القول الذي يسعى إليه السائل. وسنسعى الآن لعرض بعض الأمثلة التي توضح ذلك؛ سواء للمخاطب أو السائل.

أولاً: تلقي المخاطب بغير ما يترقب:

منه: "قول ابن القبعثري للحجاج لما قال له متوعدا بالقيد: ((لأحملنّك على الأدهم)): ((مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب)) (٣). فالأسلوب هنا لا يخلو من حكمة أرادها ابن القبعثري ليتخلص من القيد الذي أراده الحجاج حمْلَه عليه، فحَمَل اسم (الأدهم) على معنى آخر غير مراد الحجاج، أي أن ابن القبعثري يريد أن يُفهم الحجاج بما استقر عنده من فهم عندما سمعه يبرز له الوعيد بمعنى آخر للأدهم، وهو الفرس

(١) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد المجيد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٣٤ هـ، ص ٢٩٤

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب، علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٧، ج/١، ص ٢٥٨

(٣) بغية الإيضاح، ص ١٤٥، ١٤٦

الذي غلب سواده على بياضه[١]، وهو أسلوب لا يخلو من فطنة وذكاء لدى ابن القبعثري؛ إذ يمكن أن يكون من (حسن التخلص)، أو فن التخلص، وليس معنى هذا أن نلصقه بالأسلوب البلاغي المعروف(حسن التخلص)، فذاك أسلوب مغاير يُقصد به الانتقال من معنى إلى آخر[٢] ، وإنما لزمه هذا الأسلوب لكون استخدامه يعد من فنون التخلص في مواقف كهذه، وهو ما فعله ابن القبعثري مع الحجاج، إذ كان هدفه التخلص منه باستخدامه هذا الأسلوب الذي لم يخل من حكمة، بأن جعل مراد الحمل على الفرس من هبات الحجاج، لا القيد الذي يقيد الناس به.

ويذكر الدكتور محمد أبي موسى في شرحه لهذا المثال مسمى لافتا، فقد وصفه بالقول الخفي؛ حيث يقول: " وكأنه يقول للحجاج من طرف خفي: الأولى بمثلك وهو في هذا السلطان وهذه الهيئة أن يهب الخيول الدهم لا أن يقيد ويعذب فإن الانتقام خلق الضعفاء ، أما العطاء فهو خلق ذوي السلطان..."[٣]، ولعل هذا المعنى الذي أراده ابن القبعثري أن يستقر في ذهن الحجاج، ومعان كهذه لا بد لها من أسلوب مختلف يتوافق مع الوضع الذي يقتضيه ليتحقق الغرض المراد في نفسه.

شاهد آخر:

ومنه قول الشاعر[٤]:

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدي مُزَاوَلَةَ القِرَى وَقَدْ رَأَتِ الضِّيفَانَ ينْحَونَ مَنْزِلِي

فَقُلْتُ كأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلَامها هُمُ الضَّيفُ جِدّي فِي قِرَاهُمْ وَعَجِّلِي [٥]

يحكي هذا الشاعر موقف امرأته عندما جاءته تشتكي كثرة الضيوف، وهم يأتون بيته، والشكوى هنا من العبء الذي ينالها في إعداد الطعام، فكانت إجابته بعد سماع هذه الشكوى بأن هؤلاء ضيوف، والضيوف حقهم الإكرام، ولا موضع للشكوى أو التأفف، بل حق ذلك هو العمل بكل همة في إكرامهم، وليست الهمة فحسب، بل والاستعجال في ذلك. وهذا يفسره البلاغيون ــ كما ذكرنا ــ بأنه حمل المخاطب بغير ما يترقب؛ أي حمّل كلام امرأته بخلاف مرادها التي جاءت من أجله.

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠٩

(٣) خصائص التراكيب دراسة تحليلية في مسائل علم المعاني، محمد محمد أو موسى ، الناشر: مكتبة وهبة ــ القاهرة، ط ٤، ١٤١٦ هـ ص ٢٧٠

(٤) لم يسم قائله، وهو منقول من المصدر دون نسبة.

(٥) بغية الإيضاح ، ص ١٤٦

ولكن من يتأمل هذين المثالين أعلاه ويطيل التأمل فيهما هل سيجد توافقا تاما في هذا الأسلوب؟

الذي يظهر – حسب سياق المعنى والموقف– أن الأسلوبين مختلفان؛ فمثال ابن القبعثري مع الحجاج يبدو متوافقا مع هذا الأسلوب وغرضه، فقد حمل ابن القبعثري كلام الحجاج على غير مراده، وإن كان قد فهمه هو في قرارة نفسه، لكنه خاطبه بخلاف القصد، ودليل ذلك أن الحجاج فهمها بقوله: إنما أردت الحديد [1].

غير أن المعنى الذي يظهر في الشاهد الشعري هو معنى لا يقود إلى ذات طبيعة موقف ابن القبغثرى، وعلة ذلك هو أن الموقف ملخصه شكوى وتعليل؛ فامرأته تشتكي كثرة الضيوف، وإجابته–فيما يظهر– تعليل لتبديد هذه الشكوى؛ أي أنه بيّن لها عدم مقدرته الإجابة على طلبها، وكانت إجابته صريحة ومباشرة في قوله: (هم الضيف جدي في قراهم.... الخ)، ولا يظهر حمْل كلامها على خلاف المراد؛ بل حمل كلامها على الحقيقة المباشرة؛ فهي تشكي التعب، وهو يعلل بالضيوف، ولو حمَل كلامها على غير المراد لربما أورد لها كلاما مختلفا لا صلة له بالضيوف أبدا؛ كأن يستخدم مقام مدح كما فعل ابن القبعثري مع الحجاج، أو ما شابه ذلك من الكلام الذي لا يظهر فيه تعليل للشكوى، لأن شكواها صريحة من مزاولة القرى ومجيء الضيفان، وإجابته صريحة أيضا بأنهم هؤلاء ضيوف، فمن كل هذا لا يبدو حمْل كلامها بخلاف المراد ولا يستقيم المعنى على خلاف الحقيقة.

ومما يظهر أيضا أن هذا الشاهد مختص بالمخاطب غير أننا وجدناه عند صاحب البغية في الحاشية للسائل حيث يقول: "... ولهذا قيل: إن هذا من القسم الثاني لا الأول؛ لأنه ليس فيه حمل كلام على خلاف ظاهره، وإنما هو من تلقي السائل بغير ما يتطلب؛ للتنبيه على أن الأولى بها الاستعداد لهم لا الشكوى منهم."[2] ، والذي يظهر أنه يشمل الاثنين معا؛ فهي سائلة أولا في شكواها، ومُخاطبة بعد ذلك بقول زوجها: (هم الضيف)، وهذا يعني أنها سائلة ومخاطبة في آن واحد.

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٦

(٢) بغية الإيضاح ــ، ص ١٤٦

ثانيا: تلقي السائل بغير ما يترقب:

ومنه قوله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [1]، سألوا بعض القوم رسول الله عليه الصلاة والسلام عن سبب اختلاف القمر، في زيادة النور ، ونقصانه؛ فقالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثلَ الخيط، ثم يتزايد قليلاً، حتى يمتلئ ، ويستوي ، ثم لا يزال ينقص، حتى يعود كما بدأ أولا. ولماذا لا يكون على حالة واحدة؟ وما السبب الذي يجعله في هذه الاختلافات؟ فأجيبوا ببيان الغرض من هذا الاختلاف، وهو: أنّ الأهلة هي مواقيت يَعلم بها الناسُ أوقاتهم كالصوم، والحج، والمناسك، والحمل، وإلى غير ذلك من الأمور. وذلك للتنبيه على أنه الأولى بحالهم أن يسألوا عن الغرض لا عن سبب التزايد والنقص. مما يعني أن الكلام جاء بخلاف ما يترقب السائل.

ومن يتأمل في معنى هذه الآية الكريمة، ثم يذهب بتأمله إلى التفاسير التي تحدثت عنها ليُلِحّ عليك الشك في كون هذه الإجابة هي تلقي السائل بغير ما يترقب وذلك للأسباب التالية:

أولا: ليس من شك في صراحة القرآن الكريم وعمقه في إيضاح كل استفسار يرِد على الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو قرآن غير ذي عوج، ونص مكتمل لفظا ومعنى، ولا موضع فيه للعدول عن إفهام مباشر إلى إفهام مخالف.

ثانيا: أن السؤال الوارد في الآية القرآنية الكريمة محدد عن لفظ **(الأهلة)** فقط في قوله:**(يسألونك عن الأهلة)**، أي سبب ظهورها وازديادها ثم اختفائها بعد ذلك كما جاء في الحديث، ثم نجد اكتفاءهم بسماع الإجابة من الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبرهم أنها مواقيت للناس تُعرف بها أمورهم في الحياة، ولو كانت الإجابة غير مكتملة لديهم لزادوا في الاستفسار حتى تتبين لهم الإجابة بأوضح مما تلقوه، ولكنه لم يرد شيء من هذا.

ثالثا: بعد الوقوف على معظم التفاسير التي تشرح هذه الآية الكريمة لم نجد فيها شيئا من أمور أخرى مرادة غير التي كانوا ينوون معرفتها من الرسول صلى الله عليه وسلم [2].

---

(١) سورة البقرة ١٨٩

(٢) ينظر تفسير الآية الكريمة في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، تفسير ابن عاشور، تفسير الطبري، تفسير الجلالين، تفسير السعدي، تفسير ابن عثيمين للفاتحة والبقرة، التفسير الميسر. وكلها توضح ذلك.

رابعا: أن القرآن تحدث عن أهمية الهلال، وجعله دليلا على معرفة بدء الصيام، يقول تعالى في القرآن الكريم: {**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**}(١)، فهذا هو ذات الغرض الذي أجابهم به عندما سألوا عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أن رؤية الهلال في بدايته نفع كبير للناس في سبيل معرفة أوقاتهم. ويدعمه أيضا حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : "**حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ [ص: ٢٦] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ» وَقَالَ غَيْرُهُ: عَنِ اللَّيْثِ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، وَيُونُسُ: لِهِلاَلِ رَمَضَانَ**"(٢).

فهنا شرط وجوابه؛ أي إذا تحققت رؤية الهلال وجب عليكم الصيام، ومثله في الإفطار كذلك.

وهذا يعطي انطباعا بأن آية الأهلة صريحة ومباشرة في الإجابة وأنه ليس في حق القرآن أبدا التخلص من إجابتهم أو التحرج منها.

وليس معنى هذا نفي الأسلوب في القرآن الكريم جملة واحدة، بل قد يجيء في موضعه الذي عُرّف به، وذلك في مواضع صريحة، وهي تحديدا لفظ: (خلاف المراد لبيان الأهم والأولى للسائل) كقوله تعالى: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**}(٣) "**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: «قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ عَلِّمُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ ، فَقَالُوا سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ فَسَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللهُ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**. وهنا إيحاء بإجابة عظيمة لا مثيل لها؛ فهي تحمل أصنافا متنوعة من المعاني الدقيقة. هذا كله ولم يخبرهم عن سر الروح، فذاك أمر في علمه جلت قدرته، فصرَفَهم إلى ما هو أهم وأعظم، بل هو في حقيقة الأمر تذكير مشوب بالعظة ودعوة النفس من أجل الإيمان به سبحانه وتعالى، وتحديدا في قوله: **(من أمر ربي)**؛ أي هو الذي طالما أدعوكم إلى الإيمان به، ولطالما كان سؤالكم عن أمر عظيم، فكان لابد إذن أن تكون الإجابة بشيء موقعه في النفوس والعقول أجلّ وأعظم؛ لكونها من أمر الله عز

(١) سورة البقرة ١٨٥

(٢) صحيح البخاري ت: محمد زهير ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط: ١ ، ١٤٢٢هـ ج/٣، رقم ١٩٠٠، ص٢٥

(٣) سورة الإسراء ٨٥

وجل، فهنا جاءت الإجابة بخلاف المراد تنبيها على الأخذ بما هو أهم وأولى لهم أن يتفكروا فيه.

ومنه قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ}**[1]، حيث بيّن لهم القرآن بأسلوب أعم وأعمق من الذي كانوا ينتظرون، فسؤالهم عن موعد القيامة ثم جاءت الإجابة حاملة معها عدة من المعاني فمنها: النهي الخفي بترك السؤال عن موعد الساعة؛ فهو ثابت لا مفر منه، بل صرفهم إلى إجابة موجهة إلى صميم العقول بأن يوم ميعادهم ثابت لن يتأخروا عنه. وتنكير كلمة يوم للتعظيم ولتنبيه النفوس الغافلة عنه لعلها تستفيق من غفلتها، ولو استفاقت لعملت من أجل ذلك اليوم دون السؤال عنه. وهذا هو الأليق بحالهم أن يعرفوه، فكان ذلك أيضا على خلاف المراد والتنبيه على ما هو أهم وأجدى.

أسلوب الحكيم وملاءمته لسياق المعنى.

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الغَبِيطُ بِنَا مَعاً عَقَرْتَ بَعِيرِي–يَا امْرَأَ القَيْسِ– فَانْزِلِ [2]

فَقُلْتُ لَهَا: سِيرِي، وَأَرْخِي زِمَامَه وَلاَ تُبْعِدِينِي مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ [3]

هنا يصف الشاعر موقفه مع صاحبته، وهما سويا على ظهر البعير، حيث تطالبه بالنزول، وتعلل شكواها بعدم اتزان البعير في سيره، والجملة في موضع الحال؛ أي تحدثتْ وقت ميل الغبيط، والغبيط: ضرب من الرحال، وعقرت بعيري: أي أدبرتَ ظهره[4]، فهي تطلب منه النزول وترك الراحلة، ولم يكن يريد النزول ولا يريد أيضا أن يذكر لها جوابا صريحا بالرفض، ولكنه جاء بخلاف مما تترقبه صاحبته؛ فقال لها: سيري وأرخي زمامه؛ أي واصلي السير بهدوء كي لا تبتعدي عني فأُحْرَم من قربك.

فكما يظهر أنه عدل عن صريح الإجابة إلى أسلوب مخالف عن الذي كانت تنتظره منه؛ فهو أسلوب رفض خفي في حقيقة الأمر، لكنه ليس صريحا، بل هو عدول إلى أسلوب مغاير عن الإجابة.

---

(١) سورة سبأ ٣٠، ٣١

(٢) ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعارف، سنة النشر١٩٨٤، ط ٤، ص ١١

(٣) المصدر السابق، ص١٢

(٤) شرح المعلقات، أبي عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، ت: لجنة التحقيق في الدار العالمية، الناشر: الدار العالمية، ١٩٩٣، ص ١٨

ولكن هل يصح أن يُطلق على هذا الموقف "الأسلوب الحكيم؟ أو بسؤال آخر: هل يسمى العدول بمثل هذا الأسلوب لغرض القرب من الحبيبة والاستئناس بها ضربا من ضروب الحكمة؟

لعل من اليسير القول إن الحكمة لا تدخل في مثل هذه الأسلوب؛ لأنها صفة أخلاقية كما جاء تعريفها في مقدمة هذا البحث، فالحكيم هو العدل المتقن، وسياق هذا الموقف –وفق المعيار الأخلاقي– غير ملائم لصفة الحكمة، وهذا ما أشار إليه الدكتور جمعان عبد الكريم في مقالة صحفية مطولة متحدثا فيها عن أسلوب الحكيم، وما يعنينا هو تطرقه لقول امرئ القيس؛ حيث يقول: "بل إن الشاهد الشعري الذي تردده بعض كتب البلاغة لامرئ القيس وهو قوله: تقول وقد مال الغبيط بنا .... إلخ قد يعد أسلوب حكيم أو أسلوب حبيب أو حتى أسلوب لئيم"(١).

وهذا يعني عدم توازي صفة الحكمة مع صفة اللؤم، لأن الحكمة لا تصدر إلا من قول أخلاقي صائب، فقد قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}(٢) فهل كان امرأ القيس حكيما بأن عدل عن صريح الإجابة لغرض الغزل والافتتان بمحبوبته والبقاء بجانبها؟

إن المعنى الأخلاقي حتما لا يجيز ذلك. وهنا قد يسأل سائل فيقول: كيف نقبل هذا الأسلوب تارة ونستشهد به، ونرفضه تارة أخرى، والجواب عن ذلك– فيما نرى– هو أن هذا الأسلوب لا يخلو من ذكاء وفطنة وتخلص، وهو موجود في لغة العرب، وكذلك في الحياة اليومية على اختلاف مجالاتها، لكن المواقف التي تتطلب أسلوبا معينا قد تختلف من موقف لآخر وذلك وفق الغرض الذي هي فيه، وحقيقة الأمر أن هذا الأسلوب لا يعد حكيما عند امرئ القيس إذا ما قورن ببقية الشواهد وإلصاقه بشمولية الحكمة من أجل إثبات هذا المصطلح، فإذا كانت أوجه الحكمة واضحة حسب طبيعة الموقف الأخلاقي، فليس فيه هنا من الحكمة شيء؛ بمعنى أن الإشكال في المصطلح وليس في الأسلوب ذاته.

ومن اللافت وجود تعريف عند أبي الحسن الكناني (المتوفى ٢٤٠هـ) لقول امرئ القيس وهو:(الحَيْدَة)؛ إذ يقول: " وأما الحيدة في كلام العرب فقول امرئ القيس:

(١) مقالة: أسلوب الحكيم قراءة غير أخلاقية، الغامدي جمعان، جريدة المدينة، الثلاثاء ٢٠١١/٠٥/٢٤، العدد ٨٦١٤٢

(٢) سورة البقرة ٢٦٩

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري [يا امرع][1] القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل

ولم يكن هذا جوابا لكلامها، وإنما حاد عن كلامها واجتلب كلاما غيره..."[2].

ولعل هذا القول أنسب وصفا من مصطلح "الحكيم"؛ لأنه في حقيقة الأمر حاد عن مرادها إلى فهم آخر لغرض البقاء بجانبها، والاستمتاع بقربها، ولعل أسلوب الحيدة يتوافق مع موقف كهذا. وسواء كان الموقف أخلاقيا أم لم يكن إنما الذي نقصده ألا تأتي صفة الحكيم في كل موقف يكون فيه خلافا للمعنى المراد.

عودة إلى تعريف عبد القاهر:

جاء في بداية هذا المبحث أن عبد القاهر الجرجاني لم يَعْرِض لهذا الأسلوب إلا في موضع مختصر جدا أسماه (المغالطة)، وأن الذي عرفه وقعّد له بعد ذلك هو السكاكي. والذي يظهر أن عبد القاهر لم يتناول هذا الأسلوب أبدا، وأن لفظ (المغالطة) الذي ذكره إنما هو وصف عرضي؛ إذ كان اهتمامه موجها نحو قضيته الأصل التي كتب لأجلها كتابه (دلائل الإعجاز)، وهي نظرية (النظم) وسر تفاضل القول، وأن تعليقه جاء في موضع استشهاد عن موضع التقديم والتأخير، وتحديدا في تقديم ((مثل)) و ((غير)) كالأمر اللازم كما عنونها محقق الكتاب[3]. ونظن ظنا أن عبد القاهر لو عرض لهذا الأسلوب وفصّل فيه لربما أطلق عليه اسما غير هذا الاسم. والذي يجعلنا نظن مثل هذا الظن هو كتاب دلائل الإعجاز وكيف رأينا عبد القاهر يجمع صنوف اللفظ والمعنى في إظهار مزية القرآن وحسنه وإعجازه مما لا نستطيع أن نحصيه من كلامه، بل إن الكتاب كله قائم على الإعجاز القرآني وبيان الحسن فيه. فهل نظن أن عبد القاهر سيذكر لفظ المغالطة في القرآن الكريم لو عرضت له آية من ذلك؟

إن لفظ المغالطة الذي استشهد به البلاغيون عند عبد القاهر غير كاف لكي ينسبوه إليه نسبة وافية ويبنون عليه هذا التعريف، وإنما كان تعليقه على مثال ابن القبعثري مع الحجاج مُلمِحا بكلمة واحدة لم يذكر غيرها هي (المغالطة) وهذا نصه: "وقول الناس:

---

(١) هكذا وردت.

(٢) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن ، لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكناني، حققه وعلق عليه: د. علي محمد ناصر الفقيهي، الناشر مكتبة العلوم والحكمة، المدينة المنورة، ط ٢ ، ١٤٢٣، ص ٥٨

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٣٨

((مثلُك رَعى الحَقَّ والحُرْمَة))، وكقول الذي قال له الحجاج: ((لأحملنكَ على الأدهم))، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة: ((ومثلُ الأمير يحمل على الأدهم والأشهب))، وما أشبه ذلك مما لا يُقصد فيه بـ ((مثل)) إلى إنسان سوى الذي أُضيف إليه...الخ"[1].

هذا هو نص عبد القاهر وكيف ألمح إلماحة سريعة على رد القبعثري للحجاج منصرفا بعد ذلك إلى إيضاح مواضع تقديم ((مثل)) دون تفصيل منه غير هذه الكلمة. فكلمة المغالطة هنا مناسبة في هذا الموقف بلا شك، لكنها لا تبدو مناسبة لو جاءت تعميما على هذا الأسلوب في كل مثال؛ خصوصا في القرآن الكريم، فالقرآن كتاب هدى ودين ووضوح {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}[2] . ولا يمكن أن يكون القرآن مغالطا بحال.

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٨، ١٣٩

(٢) سورة الإسراء ١٠٥

النتائج:

إذا صح هذا الاستنتاج عند عبد القاهر فهذا يعزز القول في الأمثلة التي وردت في ثنايا هذا المبحث، وأن كل مثال وقفنا عنده يبدو مختلفا في غرضه عن غيره؛ كآية (الأهلة)، وكذلك بيت الشاعر الذي يحث امرأته على إكرام الضيوف، وأيضا بيت امرئ القيس في معلقته، وهذا ربما يقتضي إعادة التفكير في ذات المسمى لهذا الأسلوب نفسه أو المصطلح؛ إذ من المفترض أن يتوافق مع هذه الأمثلة بصفة عامة، لا أن نحصره بمسمى ثابت ثم يخالطه التناقض في المعنى بعد ذلك في شواهد أخرى مختلفة ليست لها علاقة بالمسمى الذي سُمي به هذا الأسلوب، فهناك جوانب شرعية وأخلاقية تتنافي مع بعض هذه المواقف، إلا إذا عزلنا الجانب الشرعي والأخلاقي في شرحنا للأساليب، وهذا الذي لا يجب أن يكون، فالحكمة لها مكانة عظيمة في ديننا وإذا اتصفت أفعالنا بها كان لها قدر وقيمة، وإذا انسلخت منها نقصت وتلاشت. فالإشكال – فيما يظهر – في ذات المصطلح للأسلوب وليس في غرضه.

وكما هما معروف أن اللغة متعددة الأساليب في تعبيرها عن المعاني، وهذا الأسلوب لا يخلو من فائدة عندما يُعبر به في التخلص من مواقف تأباها النفس في لطف وسهولة، ولكن إلصاق الحكمة به (دائما) قد لا يكون لائقا في كل مثال، ولذلك يمكن أن نطلق عليه مصطلحا يتوافق مع جميع المواقف دون وصف لقائله، ودون إلصاق سمة غير مستحقة، كأن يسمى أسلوب الحَيدة كما ذكره الكناني، أو الخفي كما ذكر الدكتور أبو موسى أو الميل، أو العدول أو مما يجب أن يكون ملائما للمعنى وإن اختلفت طبيعة الموقف.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- إبراهيم، محمد: "ديوان امرئ القيس"، تحقيق: دار المعارف، ط ٤، ١٩٨٤م.

٣- ابن منظور، محمد: "لسان العرب ". دار صادر، بيروت، ط٣ - ١٤١٤ هـ.

٤- أبو موسى، محمد: "خصائص التراكيب دراسة تحليلية في مسائل علم المعاني"، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤١٦ هـ.

٥- الأزراري، علي: "خزانة الأدب وغاية الأرب"، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ج١، ١٩٨٧ م.

٦- التفتازاني، سعد الدين: "المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم"، تحقيق: عبد المجيد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٣٤ هـ.

٧- التونسي، محمد (ابن عاشور): " التحرير والتنوير (تحرير المعنى وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد).

٨- الجرجاني، عبد القاهر: "دلائل الإعجاز"، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٥، ١٤٢٤هـ.

٩- الزوزني، الحسين (أبو عبد الله): "شرح المعلقات"، تحقيق: لجنة التحقيق في الدار العالمية، الدار العالمية، الدولة، ١٩٩٣.

١٠- السعدي، عبد الرحمن: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

١١- السكاكي، يوسف (أبو يعقوب): "مفتاح العلوم"، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ.

١٢- الصعيدي، عبد المتعال: "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع"، مكتبة الآداب، مصر، ط١، ١٤٣٠ه.

١٣- الطبري، محمد (أبو جعفر): "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، تحقيق: التركي، عبد المحسن بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند يمامة، دار هجر، ط١، ٢٠٠١م.

١٤- الصابوني، محمد: "مختصر تفسير ابن كثير"، دار القرآن الكريم، لبنان، ط ٧، ١٤٠٢ه.

١٥- عتيق، عبد العزيز: "في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، دار النهضة العربية، لبنان.
١٦- العثيمين، محمد: "تفسير الفاتحة والبقرة"، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٣ هـ.
١٧- القزويني، الخطيب: "الإيضاح في علوم البلاغة"، تحقيق وتعليق وفهرسة: غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، لبنان، ٢٠١٧م
١٨- " تلخيص المفتاح"، وقف على طبعه: سليم نصر الله داعر، بيروت سنة ١٢٠٢هـ
١٩- المحلي، جلال الدين والسيوطي، جلال الدين: "تفسير الجلالين"، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٠م.
٢٠- الكناني، عبد العزيز: (أبو الحسن): "الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن"، حققه وعلق عليه: د. علي محمد ناصر الفقيهي، مكتبة العلوم والحكمة، المدينة المنورة، ط ٢، ١٤٢٣هـ.
٢١- الناصر، محمد: "صحيح البخاري" تحقيق، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، ط: ١، ج/٣، رقم ١٩٠٠١٤٢٢هـ.
٢٢- نخبة من المؤلفين، "التفسير الميسر"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية، ط٢، ٢٠٠٩م.

ثانيا: المقالات:

١- الغامدي، جمعان: "أسلوب الحكيم قراءة غير أخلاقية"، جريدة المدينة، الثلاثاء ٢٠١١/٠٥/٢٤م، ع: ٨٦١٤٢.